مجلة مشكلات الحضارة
المجلد 11 العدد 1 السنة 2023 ص ص107-140
ISSN: 2600-6871
EISSN : 2352-9598

البحث االإثنوغرافي في الحقل االإعلامي
من حدود الواقعي إلى متاهات الافتراضي

Ethnographic research in the media field From the borders of reality to the mazes of virtuality

تاريخ الاستلام: 31 / 05/ 2023 تاريخ القبول: 06/ 06/ 2023

Abstract:

The study aims to offer a methodological reflection in order to study virtual spaces, by trying to reveal all the challenges and obstacles facing researchers, specifically ethnographers, while searching between the mysteries of daily practices in light of the digital as a fertile research field that needs study, analysis and interpretation. The paper also refers to the most important research tools and scientific methods that are used in virtual ethnographic investigations, with the aim of keeping pace with research developments in the virtual age in the field of media and communication sciences. The research, then, comes as a response to the scientific importance of the virtual ethnography tool, as it has become among the most important solutions that researchers call for use, while immersing themselves in the study of various phenomena, which leads to a new field of knowledge.

Keywords: Realistic, Virtual, Ethnography, Virtual Ethnography.

ملخص:

تروم الدّراسة تقديم تفكير منهجي يستهدف دراسة الفضاءات الافتراضية، من خلال محاولة الكشف عن كلّ التّحديات والعقبات التي تواجه الباحثين، تحديدا الاثنوغرافيين، أثناء البحث ما بين خبايا الممارسات اليومية في ظل الرّقمي باعتبارها حقلا بحثيا خصبا يحتاج الدّراسة والتّحليل والتّفسير. كما تشير الورقة أيضا إلى أهم الأدوات البحثية، والأساليب العلمية التي تُستخدم في التحقيقات الاثنوغرافية الافتراضية، بهدف مسايرة مستجدات البحث في عصر الافتراضي في ميدان علوم الإعلام والاتصال. يأتي البحث إذن كاستجابة للأهمية العلمية التي تتميز بها أداة الاثنوغرافيا الافتراضية، حيث أمست من بين أهم الحلول التي يدعو إلى استخدامها الباحثون، أثناء غطسهم في دراسة مختلف الظّواهر، وهو ما يؤثّث لحقل معرفي جديد.

الكلمات المفتاحية: الواقعي، الافتراضي، الاثنوغرافيا، النتنوغرافيا (الاثنوغرافيا الافتراضية).

المؤلف المرسل: رزيقة حيزير- جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله,

البريد الالكتروني:razika.hizir@univ-alger2.dz

1. مقدّمة:

ISSN: 2600-6871
EISSN : 2352-9598

شهد العالم ثورة في تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات تسببت في الكثير من التّغيرات التي أثّرت، وفتحت آفاقا جديد للتّطوير وإدارة مختلف القطاعات، في كل مجالات الحياة السّياسية والاجتماعية والثّقافية والصّناعية والاقتصادية والتّعليمية... وساهمت في تكوين ملامح عالم جديد متحرّرة من قيود الزّمان والمكان، متأرجح بين الواقع والخيال، وأمام اتساع نطاق القاعدة الاجتماعية المستخدمة للانترنت خاصة مع عدم تقييدها بالحدود الجغرافية والسّياسية أصبح ينظر إليه على أنّه الميكانيزم الذي يستخدمه الأفراد لتكوين وتغيير، وتشكيل واقعهم الاجتماعي والثقافي الذي يعيشونه، لذلك يتعمّق غوصهم يوميا في بحر الافتراضي كونه مجالا يحوي عالما كبيرا من المواقع الالكترونية المتنوّعة والمتعدّد الصوّر والمضامين، والتّخصصات والأهداف، وحتّى الأضرار.

إنّ مجرّد تخيّل تعطل النّظام الذي يفتح الأبواب على الافتراضي سيكون أمرا مثيرا للرّعب والتّشاؤم لدى الكثيرين، بل قد يؤدي الى تجميد الحياة اليومية ولو ليوم واحد. هذا الوضع جعل المجتمعات الإنسانية تعيش حقبة جديد بين أحضان قرية صغيرة أساسها التواصل وإنتاج المعلومات التي تلعب دورا هاما في التغيير وتحريك العلاقات الإنسانية والسلوكيات على مستوى الأفراد، والأنساق الاجتماعية مما ساعد على بزوغ ما يسمى بالمجتمع الافتراضي لا سيما في المجتمعات الغربية المتقدمة وعلى مستوى المناطق التي تتصفّح الانترنت بمجتمعاتنا لأنّه لا يخفى علينا أن بعض مظاهر الواقع

المجتمعي القديم والتي لا تزال تختلف عن أمثالها في العصر الوسيط مازالت تعاصر في صفة بقايا على حد تعبير المفكر "عبد المجيد مزيان" على غرار المجتمعات البدوية من رحل الصّحراء، وبعض القرى العتيقة في المناطق المنعزلة.

أثّر هذا الأمر على وضعية البحوث العلمية النوعية/ الكيفية عامة، وفرض على الباحثين البحث عن سبل منهجية علمية جديدة، تمكنهم من ترويض هذا الفضاء الجديد بغية تشريح تضاريسه الصّعبة، وجغرافيته المتلوّنة وإخضاعها للتحليل والتفسير وإمداد نتائج تكشف خبايا ظواهره، إذ لم يكتف الباحثون باستخدام الانترنت فقط كمكتبة مفتوحةزاخرة يبحث فيها عن الأدبيات السّابقة، أو استغلال الكمبيوتر لتدوين وتحليل البيانات النوعية، أو الاعتماد على آلات التسجيل المصغّرة لتسجيل مختلف المقابلات مع المبحوثين، وإنّما حوّلوا فضاء الانترنت إلى مجال للبحث والتّنقيب، نظرا لتغلغل الشّبكة في مختلف الممارسات، وانسيابها وسط الطقوس والعادات اليومية للأفراد. ما أدى إلى إفراز ظواهر اتصالية واجتماعية وثقافية واقتصادية ونفسية... غير معهودة، أدّت إلى غياب المعرفة عن تفاصيلها وحقائقها.[1]

لهذا كان لزاما على الباحثين البحث عن مناهج نوعية تتلاءم، وترمي إلى فهم واقع هذه الأشكال الجديدة والمتطوّرة بشكل يومي متسارع، دون الانسلاخ طبعا عن الصبغة الأكاديمية التّقليدية، ووفقا لما تقتضيه وتمليه طبيعة ضوابط ومعايير البحث العلمي، وحتى لا

يقطعوا حبل الوصال الذي يربطهم ببيئتهم ومصادر وحيهم البحثية. في هذا المضمار لجأ الباحثون الاثنوغرافيون على وجه التحديد إلى ما يسمى بالإثنوغرافيا الافتراضية ethnographie virtuelle التي اعتبروها رهانا منهجيا لدراسة إشكاليات إفرازات التطوّر التكنولوجي والعلمي الحديث، والتي تتعقّد يوما بعد يوم في محاولة للانفلات نحو واقع لا يشبه واقعنا رغم المحاكاة. وهذا أمام تعثّر الدّراسات الأمبيريقية أو الكمية التي لم تستطع تحليل وتفسير ما يحدث على مستوى العالم الافتراضي من تفاعلات، واتصالات سريعة تخضع لقوانين إنسانية غير قابلة للتحكم.[2]

وينطلق أصل المنهج الاثنوغرافي من تجزئة وتفصيل المشاهد ويوميات المبحوثين أو المشاركين (المجتمع المدروس) كمنهج بحثي يستهدف ابراز وفهم العناصر السّلوكية ومختلف الممارسات المتعدّدة في سياقات معيّنة. ليختلف هذا المقترب المنهجي الكيفي عن بقية المناهج الأخرى لا سيما وأنّه يتطلّب من الباحث الاثنوغرافي التّركيز الدّقيق، وضرورة امتلاك ثلاث مهارات أو كفاءات حاسمة لانجاز بحث بمقاييس علمية، وهذه المهارات حددتها الباحثة "لاسكو"Lascu: القدرة على الملاحظة والرؤية، القدرة على التواصل (مع الآخرين)، القدرة على التّحرير (حقيبة لغوية ضرورية للوصف المكثّف). وهي مهارات إن توفّرت في الباحث يمكن ممارستها في اي ميدان بحثي ومع أي مجموعة اجتماعية.[3]

من جهتها تبرز الاثنوغرافيا الافتراضية من تحت أضواء ثقافة بحثية جديدة تدعو إلى ضرورة التّفكير في بروتوكول بحث يعتمد على تحديات منهجية حديثة تتجاوز قواعد المناهج العتيقة المتداولة بهدف دراسة الحياة اليومية وممارساتها، ومختلف الظّواهر في ثوبها السّيبراني. ورغم مجهودات الإلحاح على التّباين بين المنهجين إلاّ أنّ وجوه الاختلاف قد تبقى بيّنة بين المنهج الاثنوغرافي والمنهج النتنوغرافي. من خلال هذه الدّراسة سنحاول استعراض طرق استخدام الاثنوغرافية الافتراضية، مع إدماج لأهمّ مزايا وإمكانيات استخدام هذا التحدي المنهجي. كما سنوضّح أيضا بعض الصّعوبات والعراقيل التي يواجهها هذا النّوع من البحوث.

2.الاثنوغر افيا منهج علمي يعتمد الوصف الدّقيق:

تستهدف الدّراسات الاثنوغرافية تسليط الضّوء على أدقّ التفاصيل، أي كلّ ما يحيط بالفرد من ظروف، وعلى تفاعل هذه الظّروف، وما يحدث من تغييرات مادية ملموسة أو معنوية، أو قيمية مجردة. من هنا تبدو لنا ملامح المنهج الاثنوغرافي الذي يتبنى الوصف الدّقيق والمكثّف لمجتمع الملاحظة. ونذكر أنّ الباحث الاثنوغرافي كان قبلا يقوم بوصف ثقافة جماعة معيّنة في إطار الدّراسات الأنثروبولوجية، وقد يكون وصف مجموعة قبيلة صغيرة في أرض غريبة، أو أحد فصول الحياة اليومية في الطّبقة المتوسّطة من ضواحي المدن.[4]

تحتاج البحوث الاثنوغرافية المشاركة الكليّة للباحث، وانفتاح ذهنه، فضلا عن امتلاكه لمهارات وتدريبات على تقنية الملاحظة، واستعمالها

في مختلف التحقيقات الاجتماعية. هذا وقد يلجأ الباحث إلى أداة المقابلة على مستويات متباينة، وغيرها من الأدوات البحثية والمنهجية التي تهدف إلى إزالة السّتار عن الارتباطات العلائقية بين مختلف الأفراد والجامعات المبحوثة، من بنوّة ومصاهرة ومعتقدات وطقوس محليّة وكلّ ما من شأنه أن يساهم في تفسير مظاهر التمايز، والتماثل، والتّقاطع في ممارسات الحياة اليومية. ما يفرض على الباحث في هذا الحقل القدرة على تحقيق التّوازن بين عضويته الكاملة في الجماعة وهويته كباحث خارج الجماعة.(5)

بما أنّ الاثنوغرافي يتقاسم يوميات وأنشطة الأشخاص وأنماط تفاعلاتهم... عليه بالقدرة أيضا على الوصف الدّقيق والمكثّف لكلّ ما يجري داخل الجماعة المدروسة من خلال استشعار ما يدور باعتباره عضوا كامل العضوية في المجموعة. وأن يكون متحكّما في التّحليل من الخارج. فالدّراسة تتطلّب منه أن يكون داخل وخارج الجماعة، حيت يقدم تحليلا موثوقا مبنيا على أسس علمية. كما يلجا أيضا بالإضافة إلى المصادر الخارجية للبيانات ذات الصّلة، وهذا يشمل الاقتباسات، والأوصاف والمقتطفات من الوثائق... مما يؤدي في نهاية المطاف إلى نتيجة واحدة، وهي الوصف السّردي. كما قد يتكوّن التّحقيق الأثنوغرافي من الخرائط والرسومات والصّور والرسوم البيانية... وغيرها من الأعمال الفنيّة التي تخدم البحث.(6)

يحتلّ البريطاني دافيد مورلي مكانة بارزة ضمن بحوث الأعلام والاتصال، كونه كان السّباق، ومن أكثر الباحثين الكيفيين انتباها

لاستعارة هذا المنهج وتطبيقه في سياق التلقي التلفزيوني مع نهاية القرن الماضي، ما سمح له الوصول إلى رؤى حاسمة حول استخدامات وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية في سياقات الحياة اليومية، مضيفا بذلك جملة من الأفكار والمفاهيم، والمصطلحات التي أثّثت لبدايات أبحاث أخرى في هذا الحقل، ونتائج علمية تصبّ بالأساس في موضوع جمهور وسائل الإعلام. وعليه استعار بعده باحثو الإعلام هذا المقترب في حالات يكون فيها موضوع الدّراسة غير مألوف لدى فريق التّحقيق، حيث يعتقد أنّ للسّياق العام تأثير مهم على مجريات البحث. من هنا يبدو لنا أنّه لم يتم الاعتراف للمتلقي بالدّور الفعّال في بناء معاني الرسائل الإعلامية فحسب، وإنّما بأهمية السّياق أيضا، إذ استبدل مفهوم فك التّرميز الذي استخدمه الباحث "ستوارت هول" Stewart Hall بمفهوم سياق المشاهدة الذي أسّسه الباحث دافيد مورلي David Morley.

سجّل تطوّر آخر في العشرية التّاسعة في دراسات استخدامات التّكنولوجيا عندما طرح مفهوم إعادة تسييق دراسة التّلفزيون في إطار تقني واجتماعي وثقافي أوسع، من خلال انسياب هذه التّكنولوجيات، واندماجها ضمن الفضاء الأسري اليومي، ليبحث في دلالات الممارسات المتولّدة عنها، فهي لم تعد تتوفّر على قيم مادية بقدر ما تتضمّن قيما رمزية تأخذ شكلها من أشكال استخداماتها.[7] هذا بالإضافة إلى بحوث حديثة أخرى على غرار تل التي تتعلّق بعلاقة التلفزيون بالمشاهدين في تكوين الذاكرة الاجتماعية، والهوية المشتركة على غرار ما قدّمه كل من

ISSN: 2600-6871
EISSN : 2352-9598

الباحث J. Bourdon وSchleesiger، وبحوث تعرض الاغتراب الفردي للمشاهدين عن طريق المقابلة المعمّقة حول الممارسات اليومية واستخدامات التلفزيون...

هي بحوث ستكون، لا ريب، نقطة ارتكاز لأبحاث أخرى جديدة، في ظل بيئة تكنولوجية غيّرت الكثير من تفاصيل اليومي مثل الابحاث التي قدّمها الباحثون (Horkeimer, Aderno,Mc Erzog,Curran,Katz, Bandura,Klapper, Hoggart, Gerbner,Hogben,Marcuse.)لاسيما وأنّها تصف الإنسان انطلاقا من رؤية جديدة من خلال التركيز على قدراته الشّخصية والفردية والاجتماعية وتفاعلاته اليومية في كلّ الأماكن والأوقات. أي تصف طريقة انفتاح الفرد على العالم وطريقته في فهم الآخر (تصرّفه مع المنظمات والمؤسسات واستخدام الآلات وكلّ ما توفّره التكنولوجيا...) فالباحث يصف الآخر ويصف في نفس الوقت ذاته وتصرفاته. وعليه من حقنا الآن التّساؤل عن الكيفية التي تمكّن الباحث من التجوّل في مختلف خطوط الأزقة الافتراضية قصد التقاط جوانب الظواهر لملاحظتها، والعودة بشهادات حيّة وبيانات هامة عن حيثيات هذا السياق.

3- الافتراضي فضاء بحثي ذو تضاريس صعبة:

تحاصر حياتنا المعاصرة مجموعة كثيرة ومتباينة من أنواع أجهزة تأبى التوقف عن التّناسل اليومي، بفضل التّطور التّكنولوجي للمعلومات والاتصالات التي فتحت فرصا أمام المستخدمين على حد سواء للمشاركة في صنع المحتوى (كالتوثيق، والإنتاج الثّقافي والفكري

ومشاركة /استهلاك المحتوى، والتّسلية، والتّعليم، والتّنظيم وإدارة الأعمال)، وبالتّالي التّأثير والتّأثر كالهواتف الذّكية، وأجهزة الكمبيوتر، والألواح الالكترونية، والأقنعة القابلة للارتداء لمعايشة عوالم افتراضية... وغيرها من الأجهزة الذّكية الأخرى التي تجد الانترنت تربة خصبة لتفعيل وظائفها المختلفة؛ أنماط متنوعة من الاتصال التّفاعلي كالبريد الالكتروني، غرف الدّردشة، الاتصال التّفاعلي بالصّوت والصّورة...، ويتوفر العالم الافتراضي على:

- ❖ مكتبة الانترنت: مستودع لنشر وتخزين المعرفة الجماعية، وهي شكل من أشكال الذّاكرة الجماعية.
- ❖ وسيط الاتصالات الرقمية: كالبريد الالكتروني وأشكال أخرى من أنواع الاتصالات الالكترونية.
- ❖ السوق الالكتروني: مواقع معاملات السّلع والخدمات، والتّجارة الرّقمية، والنّقود والممتلكات الرّقمية.
- ❖ العالم الرقمي: وهو بوابة لتجارب جديدة، بما في ذلك الإعدادات الاجتماعية الجديدة والافتراضية والواقع المعزز والتواجد عن بعد و الحوسبة في كل مكان .

إنّ هذا الوسط استدعى وجوب طرح إشكالات الإفرازات غير المألوفة المتباينة للنّقاش، والتّحليل بعمق، والتّفسير بجدية لاسيما وأنه فضاء ذو تضاريس صعبة تختلف عن تضاريس الفضاء الواقعي؛ نظرا لأنّه وسط تبرز فيه التّأثيرات العديدة المتنوعة، والمتداخلة فيما بينها، سواء ايجابية كانت أم سلبية لهذه التّقنيات على الحياة البشرية،

ISSN: 2600-6871
EISSN : 2352-9598

اجتماعيا، وثقافيا، وسياسيا ... وكذا تأثيراتها المتعدّدة على المجتمع بشكل عام من حيث الهوية، والانتماء، والوحدة، والسّياسة، والسّلامة والأمن وغيره. كما يؤثّر في سلوكيات الأفراد وعلاقاتهم وتفاعلاتهم الاجتماعية، ودرجة التأثير تتعمّق أكثر فأكثر مع مرور الوقت بما ينعكس على الذّات، لذلك عكف الباحثون على دراسة أنواع وأشكال التّواصل وتأثيراته على الهوية، وعلى القيم وعلى العلاقات الاجتماعية... ومدى مساهمتها في انخراط الفرد في واقعه أو انعزاله عنه، وأهمية الشبكات الاجتماعية ومختلف المواقع التي تكون بها منتديات المناقشة عبر الانترنت، وغرف الدّردشة، خاصة بالنّسبة لتلك التي يشارك فيها الأشخاص الذين يعانون من التّهميش الاجتماعي. هذا الوضع هزّ أيضا بقوة حدود الواقعي لصالح الافتراضي، خاصة بعد إدراك المستخدمين لهذه التكنولوجيات، وأنواع التواصل الاليكتروني، أنّ هناك مجتمعات الكترونية قد تصبح مهمّة في حياتهم، كبديل أو كملحق لأشكال المجتمع الموجودة في محيطهم المعاش واقعيا.

ظهرت دراسات عديدة بالإضافة إلى البحوث الإحصائية (الاستقصائية)، والبحوث التي حاولت البحث في كمية استخدام الباحثين للمنصّات والبيانات الرّقمية لإجراء أبحاثهم أو نشرها، أو في عملية التّدريس ... خارج الأوساط الأكاديمية، بحوث حاولت معالجة الآثار السّلبية المحتملة على غرار ما قدّمه الباحث "بول ديماجيو" Paul DiMaggio وزملاؤه سنة 2001، عبر الدّراسة الموسومة بـ "الآثار

الاجتماعية للانترنت". كما أضحى حقل الانترنت أيضا فضاء يمكن البحث في كيفية تأثير العرق على استخدام شبكات التّواصل الاجتماعي، وتأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على العلاقات الاجتماعية. وقد تعمّقت هذه البحوث في خبايا الأقليات العرقية والجماعات المتطرفة، وفي كيفية المواعدة والتودد بين العشاق، والعلاقات الرومانسية في العالم الافتراضي؛ كيف ظهرت قواعد الآداب حول استخدام الهواتف الذكية، والمشاركة العامة في مختلف القضايا والاتجاهات، والحملات، وعمليات التّعبير الاجتماعية والسّياسية والثّقافية... المعاصرة وإدراكها؛ تساهم تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في صياغة هوية الأفراد والجماعات، والتعبير عنها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك فضول بحثي عالج أهمية تغيير صورة الملف الشخصي على شبكات التواصل الاجتماعي لتعكس تضامن صاحبها مع قضية من القضايا التي تعيشها البشرية أو المجتمع المحلي (القضية الفلسطينية، الحراك الجزائري، المنشورات المسيئة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، الحداد على موت البشر بكوفيد 19، المناسبات الرياضية، التضامن مع شخصية مظلومة مثلما حدث مع أبو تريكة، أو حملة لا للتطبيع التي غزت الملفات الشخصية هذه الأيام....). من هنا يبدو لنا أنّ بروز مثل هذه المساحات التي تحتاج إلى التحليل والتفسير بطريقة علمية لا يستهان بها يحتاج إلى كل أنواع الدّراسات العلمية سواء من ناحية تحليل المحتويات أو المضامين، أو

ISSN: 2600-6871
EISSN : 2352-9598

تحليل الخطابات المختلفة، أو ما يحدث في غرف المناقشات والدردشة...

ويذكر انّ الباحثة "كريستين هين"Christine Hine أقرّت أنّ المعطى الثّقافي الأكاديمي اليوم أصبح يتضمن فضل "الاثنوغرافيا كوسيلة في دفع الأفراد إلى اكتشاف الإمكانيات التي يمكن أن توفّرها لهم الانترنت. ولكنّ محاولة دراسة المجتمعات الالكترونية كثقافات جعلها محلّ نقد لتسبّبها في استخدام مصطلحات غير واضحة مثل الاثنوغرافيا الإعلامية، والاثنوغرافيا الإلكترونية، والشبكة الاثنوغرافية، والاثنوغرافيا الافتراضية... وهو ما طرح من قبل الباحثين (كارتر 2005، ويلسون 2002، ويلسون 2006). ما مهد أيضا في وقت ما لظهور مقاربات جديدة كما أشار إليه كلّ من Markham and Bay 2008, Markham 2004، سفنيقسون 2003.

وفي أوقات أخرى يرون بشكل عام بأنّهم استمرار للأنثروبولوجيين الاثنوغرافيين، وهو ما ذهب اليه يوليو 2004، مثلما حدث مع الدّراسات الثّقافية خلال العقد التّاسع، حيث ارتاب العلماء في أنّ الاثنوغرافية الافتراضية هي نسخة أخرى من الاثنوغرافيا السّريعة التي تعني الاعتباطية والإستراتيجية، مع تواطؤ السّوق الرأسمالية المؤقتة التي تدير البحث.

4- عملياتية النتنوغرافيا:

يختلف كما ذكرنا الفضاء الالكتروني أو السّيبراني عن الواقعي من خلال ارتباطه الوثيق بالتّكنولوجيا الحديثة، وبكلّ ما توفّره من

تسهيلات يومية وبصورة فورية ومستسلمة لما تفرضه من تقاليد وممارسات اجتماعية وثقافية... جديدة. وقد أثارت الطّبيعة غير المسبوقة الأشكال وأساليب التّبادل والاتصال التي تطّورت مع إضفاء الطّابع الدّيمقراطي إمكانية الوصول إلى شبكة الانترنت العديد من الأسئلة المتعلّقة بإجراءات التّحقيق التي يتعيّن تنفيذها في هذا السّياق. الواقع أنّه بحلول نهاية التّسعينيات تساءل الكثيرون عن أساليب دراسة ما يجري على الأنترنت، لفهم الآثار الاجتماعية والثّقافية لإضفاء الطابع الدّيمقراطي على إمكانية الوصول إلى الانترنت.[8]

تشكل قضية المنهج وتقنيات البحث في الواقع الافتراضي معضلة أخرى عند المختصين والباحثين، ومحل نزاعات وخلافات لا تهدا. الأمر الذي دفعهم الى ضرورة التفكير في ابداع وإحداث تقنيات. واقتراح برتوكولات بحث جديدة. وتحديات منهجية تتجاوز قواعد المناهج العتيقة المتداولة، التي تهدف إلى دراسة الحياة اليومية السيبرانية. هذه المسالة تحتلّ أيضا مكانة كبيرة في الانعكاسات والأعمال في العلوم الاجتماعية المتعلقة باستخدامات الانترنت، حيث دعا باحثوا هذا الحقل الى ضرورة خلق انضباط علمي جديد لتكييف أساليب البحث المستخدمة من قبل العلوم الاجتماعية مع التقنيات المستخدمة في التّواصل. ولدراسة الظّواهر الاجتماعية التي تنطوي على استخدام هذه الاتصالات الالكترونية.

يعني هذا أنّه لا يشك شاك أن الاثنوغرافيا الافتراضية هي فرع جديد في حقل الدّراسات الاثنوغرافية الكلاسيكية والذي يركّز فيه الباحثون على التّفاعلات والتّأثيرات المتبادلة والمحتملة، على تحليل رسائل المتفاعلين وتعليقاتهم، ودراسة أنماط تفاعلهم في سياقاتها المختلفة، كما يهتمّون بطرق توظيف الصّور، والفيديوهات لدعم النّصوص بغرض جعلها أكثر تأثيرا، وهو ما يتيح للباحثين وصف ثقافة الجماعة التي تعكس هويّتها، وتحمل رؤيتها للعالم .

وعليه نجد أنّ صنف البحوث النوعية قد توسعت رقعته، حيث برزت نماذج من المقابلات الإلكترونية وملاحظة المستخدمين المشاركين في البحث كالدّراسات التي قدمت حول التّفاعل لكلّ من باحثي علم الاجتماع نورمان كاي دنزين وهارمس مير وبرغمان وباستينيلي Bergmann P.A &Harms Y. Meier, 2004,Denzin Norman Kent, 2007,2006,2000 ، وكذلك على غرار ما قدمه كلّ من الباحثين الغربيين باتريسيا درينتا Patricia Drental ، وجينيفر موران كروس Moren Crossودون ستايلر Don Staler مع دانيال ميلر D. Miller وكذا كريستنا هين Christine Hine 2000 من خلال الاعتماد على ما يسمى اليوم بالاثنوغرافيا الافتراضية أو النتنوغرافيا .Ntnographie وقد قامت كلّ من الباحثتين باتريسيا درينتا وجنيفر موران كروس سنة 2005 بدراسة اثنوغرافيا اعتمدت أداة الملاحظة بالمشاركة الافتراضية استهدفت جماعة من الأمهات التي كانت تتقاسم نفس الاهتمامات، والوضع على شبكة ألانترنت، وكنّ يتبادلن النّصائح

والمعلومات حول الحمل والولادة والرضاعة. وقد كانت الباحثة "جينيفر موران كروس"إحدى المشاركات في هذه المجموعة، وهو مكنها من ملاحظة الأخريات.[9]

وفي هذا المضمار استخدم الكثير من الباحثين الغربيين أيضا مصطلح "الاثنوغرافيا الافتراضية أو مصطلح النت نوغرافيا" الذي اقترحه الباحث روبرت كوزيني Robert Kosinets على اعتبار أنّ عوالم البحث والابتكار الفكري مليئة بالكلمات الجديدة التي ربما تبدو بادئ الأمر غريبة او خاطئة عند ظهورها كعلامة تجارية جديدة. ولكنّ هناك ميادين تتطلّب تعيينات، وأسماء جديدة للتّعبير عن الواقع، واعتبر الأسماء تستغرق بعض الوقت لتستقر.لذلك وضع مصطلح النتنوغرافيا التي تهدف إلى وصف المجتمعات الشّبكية،نظرا لأهمية هذا المنهج واقترانه الشّديد بالوصف الدّقيق للأفراد، والجماعات وحركات التّفاعل.[10]

طرح هذا الباحث في كتابه الموسوم بـ النتوغرافيا، عديد التساؤلات مثل كيف يمكننا فهم التّفاعلات بين الإنسان والإنسان من جهة، وبين الإنسان والآلة من جهة أخرى، وبين التّجربة؟ ما هي الظّواهر الثّقافية والاجتماعية المتمثلة في وسائل التواصل الاجتماعي؛ كيف نربطها بالمفاهيم التي نعرفها بالفعل مثل الشّبكات والمجتمعات والثّقافة؟ ما هي الممارسات البحثية التي توجّه، وتعلّم، وتهيكل النتنوغرافيا؟ كيف يمكن لسابقاتها تاريخيا (اثنوغرافيا الواقع) أن تحتويها لتتعايش مع

النّظرية؟ كيف يمكننا فهم مفاهيم المجتمع والثّقافة في سياق ممارسات النتنوغرافيا الميدانية؟[11]

ويرى هذا الباحث أنّه يجب الأخذ بعين الاعتبار أن المجمعات الافتراضية تختلف تماما عن المجتمعات الواقعية، بل يعتبر النوع الأولى خريطة جديدة للنّوع الثاني، لهذا يتساءل فيما كان هناك إمكانية اعتبار الاثنوغرافية الافتراضية تختلف عن الاثنوغرافيا الواقعية (وجه لوجه). ويرى أنه عمليا نحن مجبرون على تبني مصطلحات جديدة تساعد في الكشف عن الاختلافات بين الاثنوغرافيتين (الافتراضية والواقعية)، علما أن باحث الاثنوغرافيا الافتراضية له فرص أكبر، إذ يمكنه الولوج ثانية إلى أرشيف التّفاعلات الاجتماعية.[12]

إلى جانب اجتهادات الباحث "روبرت كوزيني" نجد جهودا غيرها تصبّ في نفس السّياق، قام بها كلّ من الباحثين راينغفودReingold ، تريك Trukel، بيمBaym ، ريدReid ، روبن حامانRobin Hmmam، وكرسيتين هينChristine Hine ، وقد قدت هذه الأخيرة دراستها حول الاثنوغرافيا الافتراضية عام 2000، ذكرت فيها أنّ هذا المنهج لا يقتصر على دراسة كيفية استخدام الأفراد للانترنت، ومخلفاتها، وإنّما يتجاوز إلى كيفية اعطاء ممارسات الافراد معنى للانترنت في سياقاتهم المحلية، وقامت في هذه الدّراسة أيضا بتحديد مبادئ ومهارات الاثنوغرافيا الافتراضية حددتها كما يلي :[13]

- التواجد المستمر للباحث في ساحة الميدان الافتراضي المبحوث.
- التقيّد الصارم بملاحظة يوميات المستخدمين .
- يجب أن يكون الفضاء معروفا كموقع للتّبادل وليس كمكان للتّبادل وجها لوجه .
- الانترنت مكان ثقافي يقبل الملاحظة فيه.
- البراغماتية في التّعامل مع الامتدادات اللاّمحدودة للعالم الافتراضي.
- اعتبار كلّ اشكال التفاعلات الاثنوغرافية ممكنة، وليس فقط التّبادل وها لوجه .
- ضرورة التّكيف مع كلّ الوضعيات أثناء العمل على اكتشاف العلاقات الشخصية.
- اعتبار الاثنوغرافية الافتراضية نشاطا يوميا للباحث أكثر من المستخدمين .

في سياق متصل، تذكر الباحثة ماري ميكا Mari Mika مثلا عن ضرورة استخدام الاثنوغرافيا الافتراضية (علما أنّها من أهم الباحثات الغربيات في هذا الحقل) قائلة: "يمكن لأي شخص أن يلاحظني جالسة في مقهى أنظر إلى هاتفي المحمول من نوع . iphone 6+، ولكن لن تكون لديه أية فكرة عما أفعله بهذه اللّوحة الاتصالية المعدنية في يدي. هل أنا استخدم الهاتف لقراءة رواية؟ أن أنّني أتواصل مع عائلتي؟ أم أنّني ألعب لعبة؟ بالطبع، انا حاضرة جسديا بين هؤلاء الحاضرين في نفس

الفضاء. ولكن في نفس الوقت أنا أتواجد في مكان آخر، بنفس القدر أو ربما بقدر أكبر. إذن أين أنا؟ أجلس في مكانين مختلفين، تماما كوعي المزدوج، والملاحظ لي لن يلاحظ سوى ذاتي الجسدية، وقد يكتشف جزئيا معنى سلوكي، وما أفعله، أو أين أنا بالضب؟[14]

وترى هذه الباحثة أنّ هذه الحالة من التواجد بين واقعين (حقيقي وافتراضي) مختلفين قريبين وبعيدين في آن واحد، لن يستطيع البحث فيها سوى باحثوا الاثنوغرافيا الذين تعودوا على إجراء بحوث ميدانية تعتمد الملاحظة، فهؤلاء حسبها مدربون على الأساليب الاثنوغرافية التقليدية الموجودة بشكل أساسي في المجال المادي أو الواقعي.[15]

دعت الباحثة ميكا Mika هؤلاء الباحثين إلى مواصلة مهامهم في عالم الانترنت، حيث توفّر شبكات التواصل الاجتماعي ومنتديات المناقشة للباحث أيضا بيانات كثيرة ومختلفة، لا يمكن الوصول اليها في مدّة زمنية قصيرة. فعلى الأقل حسبها يمكنهم أن يقدموا بحوثا خالية من أي تحيّز لتعوّدهم على هذا النّوع من البحوث الكيفية ذات الضّوابط العلمية المحدّدة.وفي الوقت الذي ينادي البعض بوجوب الالتزام بالمعايير الأخلاقية أثناء القيام ببحث اثنوغرافي، ترى نفس الباحثة "ماري ميكا"،أن الاثنوغرافيا الافتراضية يمكن أن تجرى سرا، وبدون الحاجة إلى تنسيق لوجيستي إضافي، أو السّفر، أو المصاريف المصاحبة من أجل اكتشاف نظرة ثاقبة على السّكان الذين يصعب الوصول إليهم من قبل الباحثين، سواء بسبب الوقت أو القيود المالية أو قيود الخروج/ الدّخول .

إذا كانت الأهداف المنشودة من الدّراسة واضحة الى حدّ ما (على سبيل المثال تستهدف اكتشاف الذوق في اللّون المفضّل لمحافظة الكمبيوتر اللوحي أو الإحساس أثناء لمس الجهاز أو التّنقل عبر مواقع الويب) من المحتمل أنّ تكون البيانات والمعلومات المستقاة من الاتنوغرافيا الافتراضية، والوقت المستثمر فيها ذات قيمة ضئيلة. ولكنّ إذا كان الهدف البحثي هو فهم الأطر المفاهيمية أو النّماذج العقلية (على سبيل المثال الحصول على معلومات تخصّ تطلّعات المشاركين للأمن المنزلي، أو ثقافة الطّهي في أمريكا، أو كيف يختبر المرضى ومقدمو الرّعاية العلاج) فإنّ المصادر النتنوغرافية ستقدّم ثروة من البصيرة، والفروق الدّقيقة التي لا يمكن للباحثين الوصول إليها على الأرجح ضمن نطاق الوقت، والطّبيعة الرّسمية للعلاقة بين الباحث والمبحوث.[16]

تذكر ماري ميكا Marie Mika أيضا مجموعة أمثلة لبحوث اثنوغرافية تقليدية اعتمدت الاثنوغرافيا الافتراضية بطرق متعدّدة كمكمل للحصول على أكبر قدر من البيانات الحقلية أو الميدانية. حيث يمكن إثراء بحث اثنوغرافي تقليدي يحاول فهم "تجربة مريض" بشكل أعمق، من خلال دراسة مضامين منشورات وسائل التّواصل الاجتماعي، ومنتديات المناقشة والمدونات المتعلّقة بظروف المريض المحددة. وقراءة التّعليقات على المقالات ذات الصّلة في نيويورك تايمز New York Timesكما يمكن استخدام Pinterest عند إجراء بحث حول ديناميكية نمط حياة عائلي معين في المنزل، وهذا من خلال كيفية

ISSN: 2600-6871
EISSN : 2352-9598

مشاركة الأشخاص للأفكار الإبداعية، ولإدارة الأعمال المنزلية، وردود الفعل والمحادثات المرتبطة بها من أجل بناء مناطق للمشاكل ومساحات للحلول.كما تذكر أنّها عند محاولاتها في إحدى دراساتها الكشف عن الفرص لدعم المطورين، اطلعت على المنتديات ذات الصّلة عبر الانترنت والمجتمعات الخاصة، بغية الحصول على الأداة لفهم أنواع المشكلات التي يتحدّثون عنها، ولتحديد إلى أي مدى وبأي طرق يمكن للعملاء التّفاعل مع المجتمعات طوليا لدعم المنتوج وتطويره .

5- حدود النتنوغر افيا:

إنّنا نعلم من خلال ما سبق ذكره أنّ الباحث الاثنوغرافي عندما يحقق في فضاء واقعي يتحرّك أوّلا من مكانه للذّهاب إلى موقع الملاحظة، ولمعايشة ما يرغب في دراسته واستنطاقه، غير أن الباحث الاثنوغرافي "الافتراضي" المهتّم بما يحدث في منتديات الدّردشة هو زميل له في الأساس. لكن في معظم الأحيان يمكن اللّقاء وراء الشّاشة من حين لأخر، بهدف إجراء مقابلات وجها لوجه مع الممثلين (المبحوثين) في الفضاء الذي ترتكز فيه دراسته .

من أجل تحقيق أغراض اثنوغرافية غامرت الباحثة هين Christine Hine مثلا في العمل مع الجمارك، حيث انضمّت إليهم كباحثة، وكمشاركة في البحث، مقابل قيامها بتحديث دليل المستخدمين لديهم بما يخدم أهداف أبحاث بيولوجية. لذلك قاموا بتوصيلها بقائمة من المراسلات التّابعة للقسم، والتي أعطتها فرصة الاطلاع على الميدان

الافتراضي، حيث رتّبت لقاءات دورية مع المشاركين مقدارها لقاء واحد (مرة) كلّ أسبوعين (كلّ خمسة عشرة يوم)، وكان البريد الالكتروني الطّريقة العملية والأساسية للتّواصل ولتحقيق أهداف بحثها .

شملت تلك اللقاءات الافتراضية فريق الأنظمة System Team وفريق المشاركين Applications Team ، حيث يقوم كل واحد فيهم بتقديم الأعمال التي قام بها خلال الأسبوعين السابقين بالمقابل كانت هناك لقاءات أخرى واقعية أي مباشرة (وجها لوجه[17] ما حول اللّقاءات غير المرئية (الافتراضية) إلى لقاءات مرئية، إذ كانت امتدادا لها .

في هذا المضمار تذكر الباحثة أنها واجهت عديد العراقيل على غرار عدم تمكّنها من الولوج بحرية إلى حسابها في برونيلBrunel ، وكان عليها أخذ الإذن أوّلا من قسم Computer Sevices Departement، وتذكر أيضا أنّها كلّفت خلال هذه الفترة من العمل برسم مخطط لعبة الأدوار. فبعدما تحصّلت على معطيات جغرافية وأرض للهبوط، خاصة بالمستخدم؛ كان لها حرية اختيار اسمه وجنسه، عبر لقاء افتراضي بفضل موقع مو) Moo هو موقع تمّ تصميمه من أجل تطوير المخططّات، والسّماح للمشاركين في التّفاعل عبر الشبكة، لكن في الأعوام الاخيرة أصبح محيطا او مجالا يستهدف تحقيق أغراض أكثر جدية، وهي التّواصل والتّفاعل) في غرفة مخصّصة للباحثين في علم البيولوجيا، حيث يستخدم هؤلاء هذا الموقع للحصول على معلومات أكثر من الشّبكة. أثناء عملها الافتراضي حاولت الباحثة ملاحظة مدى تأثير الموظفين الزّملاء عليها أيضا (تأثير المحيطين على الباحثة)، وكان

المخبر (المبحوث) هو من اختار موقعا عموميا، بالمقابل طلبت منه الباحثة دراسة محيطها جيدا، من خلال السماح لزملائها بقراءة مراسلاته التي يرسلها لها، فلم يكن لديه أي مانع، وقد أحب زملاؤها المبحوثون ما كانت تقوم به في هذا الميدان [18].

تذكر الباحثة في دراستها أنّها في البداية أحسّت بتقارب، وتكامل العالمين (الافتراضي والواقعي)، وبعد لقاءات كثيرة اكتشفت أن التّفاعل في الموقع قد أضحى بسيطا. وعندما كانت تكتب محادثاتها تزامنا مع ظهور رسائل أخرى على الشّاشة، تبعثرت سلسلة أفكارها ودخلت في سباق سريع مع ما كانت تحاول قوله في المرحلة السّابقة. كما تبعثر تقدّمها في وضع المخطّطات، وكانت تقع في الأخطاء الإملائية عندما تكتب،كما لا تستطع ملاحقة كلّ أفكارها وإيصال المعاني التي تحملها، إضافة إلى معاناتها مع صعوبة مواكبة عدد الدّردشات الموجودة في غرفة واحدة في نفس الوقت، ما جعلها نكتة ظريفة، وأحيانا محل سخرية من قبل الزّملاء. وقد اكتشفت الباحثة "هين" أن هناك حلبة (أي غرفة) سباق في الكتابة حاشدة، غير موجودة في العالم الواقعي، وفي التّواصل المباشر.[19]

هذا الأمر في الحقيقة يحدث لي شخصيا في الكثير من الأحيان أثناء دردشتي مع الأصدقاء عبر موقع الفيسبوك، فأنا لا استطيع الإجابة على كل الأسئلة مباشرة في آن واحد، ولا يمكنني أيضا تبادل أطراف الحديث براحة كما في الواقع عندما أكون وجها لوجه، فالمتحدّث إليه في الافتراضي يسبقني بطرح أسئلة جديدة قبل أن أعطيه إجابات عن

أسئلة سابقة أو كلام سابق. هذه التّجربة تجعلني في حالة سباق سريع يوقعني في فخ الأخطاء الإملائية خاصة، إذ يحاول قاموس الهاتف تصحيح ما أكتب، وفي بعض الأحيان هناك مطبّات التّعبير، بل حتى أقع في فخ اضطراب أفكاري وتبعثرها، وأشعر ساعتها أنني سجينة هذه الأزرار والأنامل التي تأبى أن تكون جنبا الى جنب مع سرعة أفكاري، هذا الأمر لا أواجهه عندما اكتب نصا خارج إطار الدّردشات.

من جهة أخرى تذكر الباحثة هين Hine أيضا أن كلّ من الباحثين "هامرسلي""واكينسون Hammersly & Athkunson "قد طرحا تساؤلا عن علاقة "تبني" الباحث من طرف البحث الاثنوغرافي. وتأثيرات هذا الدّور على نتائج البحث.واتجاهات المخبرين (الباحثين). مع الأخذ بعين الاعتبار اتجاهات أخرى كفئات المجتمع التي يكشفها الباحث الاثنوغرافي، والنّتائج المحدودة المحتملة، لتنقل بالتّركيز بشكل خاص على جنس الباحث، حيث لا يمكنها الفرار من خصائص هذا الأخير (الجنس). ومشكل الجنس حسب الباحث بال Bell ظهر بسبب محاولة باحثي الميدان (الحقل)، تأسيس علاقات، وتعلم كيف يرون ويفكرون، وكيف يكونون في ثقافة أخرى، ويقومون بهذا كأشخاص ذوي أعمار محددة، واتجاه جندري محدد، ومعتقد معين، وخلفية تعليمة، وانحدار اثني أو طبقي معين.[20]

إلى جانب ما سبق ذكره تطرح أيضا إشكالية طريقة الوصف المختارة من طرف الباحث الاثنوغرافي غير المعتادة، فانطلاق الباحثين من زوايا تخصصاتهم المتباينة، قد يتسبب في بروز بعض العراقيل التي تمس

الخصائص التي تمت مناقشتها من قبل الباحث أثناء تحليل مستندات الانترنت، على غرار التّساؤل حول نوع النّص الذي يحتاج إلى تحليل، هل هي "الصّفحة الرئيسية المفردة، او صفحة الويب المعزولة، أو مجمل صفحة تحتوي على روابط إلى صفحات أخرى ذات صلة، ومن أين يجب أن تبدأ، فإذا كنّا سنبدأ من فكرة التتابع، فإنّنا سنكون بحاجة إلى بداية نصّ، وهي بنية خطيّة تقريبا، وفكرة عن نهاية النّص أيضا. ولكن ما هي بداية صفحة الويب؟ أو ما هي معايير اختيار صفحة البحث، وما هي معايير اختيار صفحة لبدء التّحليل؟ يمكن أن يأتي التّسلسل المحتمل من القائمة الرئيسية لصفحة الويب ومن ثم الانتقال إلى القوائم الثّانوية، ولكن باختلافها عن النّص المكتوب، فهذا ليس أمرا ثابتا.[21]

مع استمرار ظهور مواقع الويب واختفائها، قد يكون من الصّعب أيضا افتراض أن الصّفحة التي تمّ العثور عليها ستكون دائما متاحة للمستخدم بنفس الطّريقة السّابقة مرة أخرى. الأمر الذي يجبر الباحث على تخزين وأرشفة نسخ من أهم الصّفحات المعنية في بحثه، على جهاز حاسوبه الخاص، وفي نفس الوقت، على الباحث العودة إلى مواقع الويب أثناء البحث للتحقيق والتأكد فيما إذا كانت قد تغيرت، أو تم تحديثها، واعتمادا على ما يريد الباحث معرفته بالضّبط، يمكنه استخدام طرق تحليل المواد البصرية أو المواد النّصية، كما يمكنه أيضا استخدام برامج تحليل البيانات النّوعية الأكثر تطورا للقيام بدراسته.[22]

من جهتها تطرح الباحثة الفرنسية إلودي كريسبال Elodie Crespel في دراستها الموسومة بـ "الاثنوغرافيا المتعددة المواقع عبر الانترنت: دراسة للممارسات اليومية لمشاركة الفيديوهات"، أنّ ما يفرضه الافتراضي من خصائص ومميزات غير معهودة يضعنا أمام وضعية منهجية تجعلنا نواجه العديد من التّحديات، على غرار نقص أو غياب "الحقل الواقعي المراد دراسته: طريقة متفق عليها لتجنيد المشاركين والمشاركات (المبحوثين) في البحث؛ وضعية دور الباحث ومقارنة بالمبحوثين، وبتخصّصه. هذا بالإضافة إلى أنّ مشاهدة مقاطع الفيديو ومشاركتها عبر الانترنت تعتبر جزءا من حياتها اليومية؛ وهو أمر لم يولّد لدي الفضول الكبير أو الحاجة الماسة لمعرفة ومعايشة هذه تجارب الظّاهرة عن قرب.[23]

حتى تتغلّب هذه الباحثة على هذا الشّعور الصّعب بالتحيّز المنهجي، كان عليها أولا أخذ مسافات بعيدة عن غرضها البحثي وشعورها بعدم أهمية معايشة ممارسات تعيش تجربتها يوميا. وجعلت من ممارساتها الخاصة غريبة مثل ممارساتها مع المشاركين في البحث. وهنا ترى هذه الباحثة انّها أضحت تشبه المتسكّع Le Flâneur الذي يظهر كالغريب في موطنه او حيّه... ويملك نفس الخصائص الانعكاسية التي يتميّز بها الأخصائي الثقافي، والفنان، والكاتب، والصّحفي، والمفكر والباحث العلمي في الطّباع الاجتماعية.[24]

ويعني المتسكع الفلانورLe Flâneur في الثقافة وفي الكتابات الفرنسية الأدبية والاجتماعية والفلسفية على غرار ما جاء في كتابات بودلير،

ISSN: 2600-6871
EISSN : 2352-9598

فالتر بنيامين، والقواميس اللغوية، بأنّه ذلك المراقب الفضولي الذي لا يفعل شيئا طيلة النّهار غير المشي في شوارع باريس خلال القرن التاسع عشر 19، حيث كان يهرب في هذه المدينة الحديثة والسّريعة من الأرصفة ومن الجموع، رافضا الانصهار فيها، لأنّ هدفه يختلف تماما عن أهداف البقيّة، فهو يهوى المشي البطيء والفرجة وشغوف بالمراقبة الدّقيقة. في انتظار أن يحدث شيء ما في السّاحات العامة والأسواق؛ ويلتقط من اللّحظات الهاربة ما تعجز عيون المشاة العاديين عن التقاطها، مثل ابتسامة شخصين تتقاطع نظرتهما صدفة في شارع ما، ولن يلتقيا بعدها أبدا .

الفرق مرة والتشابه مرة أخرى واضح بين الدّورين، وضعية المتسكع الذي يتحرّك من مكان إلى آخر، ووضعية الباحثة التي تجبرها التقنية على البقاء مقابل الشاشة دون تحرك جسدي من مكان الى آخر. ويكون التحرّك افتراضيا بمشروع واضح المعالم (أهداف بحثية محددة)، تنتظر ما تقدمه الإجابات، أو ما سيفعله، أو ما يكتبه المستخدمون المبحوثون في عالم بلا نهاية (متاهة)، بالمقابل نجد المتسكعين مهما اختلفت أماكن تواجدهم وثقافتهم وعقيدتهم... يتحركون ولا يجمدون، يلاحظون كل شيء يتحرّك، هدفهم واحد قتل الملل، الخروج كلّ يوم إلى شمس النّهار من دون مشاريع واضحة، مستعدين لأي شيء ولأي رحلة، منتظرين ما سيأتيهم عبر سيل الحياة والبشر .

6.خاتمة:

ترتبط الاثنوغرافيا الافتراضية في الأساس بمعايشة افتراضية للمستخدمين الافتراضيين عبر منتديات النقاش، وبين المجموعات المتصلة فيما بينها عبر مختلف شبكات التواصل الاجتماعي مثل الفايسبوكFacebook، الانستغرام Instagram، الواتساب Whats App التويتر Twitter، سنا بشات ... Snapshat والتركيز في دراسة المستخدمين على التحليل السردي الكيفي Qualitative Narrative analysis لتعليقاتهم في العالم الرقمي. بالإضافة إلى الانطلاق من المدخل الفنومنولوجي Phenomenology، تمكّن هذه الطريقة البحثية الاثنوغرافيا الافتراضية من التقرّب أكثر من المبحوثين، من أجل بناء المعاني على الانترنت. ولكن هذا التقرب يكون بدرجات متفاوتة بينهم لاعتبارات متباينة كطبيعة الفرد والسّكان، ونمط الحياة المعيش، ونوع الأعراف الاجتماعية والخصائص... وعند إجراء دراسة اثنوغرافية لغرض البحث التصميمي التوليدي، فإنّه في معظم الحالات، ستوفّر البيانات الاثنوغرافية فهما أكثر ثراء لمن هم في مجتمع الدّراسة (المبحوثين) حول تفاصيل حياتهم اليومية، وأهدافهم، وأنواع المشاكل التي يعانون منها، ما يسمح في النّهاية بفتح نوافذ أمامهم على فرص الابتكار.[25]

بهذا فإنّ الاثنوغرافيا الافتراضية لم تكمّل فحسب الاثنوغرافيا التقليدية بل دفعتها إلى التّساؤل عن مميزات تميّزها في العالم الواقعي، ثمّ تميزها في العالم الافتراضي،وإلى ضرورة النّظر للتكنولوجيا بعمق وجدية أكثر. كما أصبحت عملية إيجاد (تحديد) الميدان أو الحقل

البحثي جزءا هاما من البحث مثله في ذلك أهمية عملية إيجاد البيانات والمعلومات، كونه يعبّر عن تواجد بشري في عالم افتراضي / اليكتروني.[26]

تضيف أيضا في هذا الصدد الباحثة إلودي كريسبال أنّه يمكن أيضا دراسة الظواهر المرتبطة بعالم الانترنت خارج الانترنت، حيث لا تكون الأدوات المنهجية الافتراضية ضرورية دائما، فعملية جمع القصص مثلا من خلال المقابلات يمكن أن تتم خارجا وجها لوجه، وليس شرطا ان تتم عبر الانترنت. ويمكن استخدامها كأدوات تكميلية للأدوات البحثية المعهودة[27]، فإن تميّزت الاثنوغرافيا التقليدية بالقدرة على تعريف التواجد الفيزيائي (الحضور)؛ تحديد مصدر المعلومات فيما إذا كان المصدر إنسانا أو غير بشري؛ التعرّف على الظّاهرة فيما إذا كانت نفسها؛ التساؤل حول دور الباحث الاثنوغرافي ومدى قدرته على التّحكم في الاثنوغرافيا الواقعية. فإنّه على الاثنوغرافيا الافتراضية التأكد من حالة المعلومة. والأخذ بعين الاعتبار أهمية خصائص التكنولوجيا، والتمييز بين المعلومات الثانوية والمعلومات الرئيسية، وما هو واضح وما هو غير واضح، وأخيرا أهمية حضور ودور الباحث الاثنوغرافي الالكتروني .

لا تزال البحوث النّوعية إذن تعرض دائما طرقا متنوّعة مرنة وقابلة للتعرّف بصورة تفصيلية وللتكيّف مع الظّواهر قصد دراستها وتحليل مختلف ممارسات الاتصال عبر الانترنت التي لا تريد التوقف عن التداخل مع جميع مجالات الحياة اليومية ما يدفع الى اتساع رقعة

الحاجة إلى عمليات بحث متعددة المواقع، وتكاثر هذا التداخل أصبح يتطلّب الدّراسات المتأنية في المساحات المادية أو الواقعية (مثلا في المدينة أثناء التنقل...)، في المساحات الافتراضية (الانترنت، تطبيقات الهواتف الذكية...) وقد تتوصّل الاثنوغرافيا الافتراضية في المستقبل إلى إتاحة إمكانية استكشاف كيفيات التواصل الاجتماعي والعاطفي، القياس الذاتي (التحديد الذاتي)، أو المشاركة المدنية أثناء أخذ مراعاة الفروق الثقافية والاجتماعية واللغوية.[28]

من هنا نوصي بضرورة أن تكون تجربة الاثنوغرافيا الافتراضية هي المضي قدما نحو تحقيق ما تعسّر على المناهج والأدوات البحثية التقليدية التي لم تعد ترقى إلى طموحات بعض الباحثين الذين ذاقوا ذرعا بالجمود البحثي، ولم يعودوا يتحملون ملل التسكع بين مناهج وأدوات بحثية رسمت أشواطا سابقة في مسيرة البحث العلمي، ولكنها لم تعد صالحة لحقول ميدانية معيّنة؛ وزحزحت التكنولوجيا ما كان موجودا، وأفرزت ما هو غير مألوف ومعقد.

إنّ تبني هذا التوجه البحثي في الدّراسات المحلية على غرار الدّراسات الغربية سيدفع بمن استفزّهم الوضع إلى الانتفاض، وكسر ما كان يعتقد أنّه لا يمكن اختراقه من ضوابط ومعايير منهجية، وهو وضع سيعلن ميلاد عهد جديد من الأعراف البحثية المبنية على ثقة الباحث بالمبحوث بما يمتلكه من قدرات إبداعية، وإمكانيات في تحقيق نوع من التّأثير في العالم الافتراضي الذي أضحى يحاكي العالم الواقعي .

7- قائمة المراجع بالغة العربية:

1. حيزير، رزيقة: "المنهج الاثنوغرافي واستخداماته في علوم الاعلام والاتصال، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، جامعة الجلفة، العدد 2، ديسمبر 2018.

2. صوان، فرج محمد: "البحث النوعي عبر الانترنت"، متوفّر على https://academiworrld.org تاريخ التصفح 10 ديسمبر 2020، على الساعة 22.00.

3. قسايسية،علي، "جمهور وسائط الاتصال ومستخدموها: من المتفرجين إلى المبحرين الافتراضيين"، الورسم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 2012.

8- قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

1. Crespel Elodie, L´ethnographie multi sites en ligne: études des pratiques quotidiennes de partage de vidéos, COMM posite, no 19 (1), 2016.

2. Drentea Patricia & More-Cross Jennifer L, Social Capital and Social Support on the Web: The Case of an Internet Mother Site, Sociology of Health & Illn, 2005 . Nov, 27(7) :920-4. Retrieved 26 . 10. 2018, at 09.00, from https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov

3. Fetterman David, « Ethnography: step- by- step » , Applied Social Reshearch Methods Series, Sage Publications , 1998.

4. Genzuk Michael ,A synthesis of ethnogrqphic research , Centre of, Multilingual, Multicultural Research, University of southern California, 2003, Retrieved 25. 05, 2005 at 11.20 from https://www.academia.edu.

5. Hine Christine , «Virtuel Ethnography, 3 the international Conference on Public Communication of

Science and Technology (PCST) , Montreal, Canada, 10 - 13 April, 1994.

https://meduim.com

6. Kozinets Robert V, Nethnography, Sage, 2nd Edition, 2015.
7. Lascu Corina Ciliano, «l'ethnographie de la communication de Dell à John Gumberz», Diagos, 2003.
8. Mika Marie, Why and How Virtual Ethnography Can enhance Generative Design Research, Retrieved 10 . 09. 2020, at 23.00,from :https://medium.com
9. Pastinelli Madeleine, pour en finir avec l´ethnographie du virtuel des enjeux méthodologiques de l´enquête de terrain en ligne, Antropologie et Sociétés, vol. 35, no 1-2, 2001.

الهوامش:

[1] حيزير، رزيقة: "المنهج الاثنوغرافي واستخداماته في علوم الإعلام والاتصال، **مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية**، جامعة الجلفة، العدد 2، ديسمبر 2018، ص 281.

2 نفس المرجع، ص 282.

[3] Lascu Corina Ciliano, «l´ethnographie de la communication de Dell à John Gumberz», Diagos, 2003, p113.

[4] Fetterman David, «Ethnography: step- by- step» , Applied Social Research Methods Series, Sage Publications , 1998, p11.

[5] Genzuk Michael ,A synthesis of ethnographic research, Centre of, Multilingual, Multicultural Research, University of southern California, 2003, Retrieved 25. 05, 2005 at 11.20 from https://www.academia.edu .

ISSN: 2600-6871
EISSN : 2352-9598

[6]Ibid

[7] قسايسية، علي،"**جمهور وسائط الاتصال ومستخدموها: من المتفرجين إلى المبحرين الافتراضيين**"، الورسم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 2012، ص99.

[8] Pastinelli Madeleine, pour en finir avec l´ethnographie du virtuel des enjeux méthodologiques de l´enquête de terrain en ligne, Antropologie et Sociétés, vol. 35, no 1-2, 2011, p 38.

[9] Drentea Patricia & More-Cross Jennifer L, Social Capital and Social Support on the Web: The Case of an Internet Mother Site, Sociology of Health & Illn, 2005 .Nov, 27 (7):920- 4. Retrieved26. 10. 2018, at 09.00, from https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov.

[10]Kozinets Robert V, Nethnography, Sage, 2nd Edition, 2015, p 4.

[11] Ibid, p 9.

[12] Ibid, p 25.

[13] Hine Christine, «Virtuel Ethnography, 3 the international Conference on Public Communication of Science and Technology (PCST), Montreal, Canada, 10 - 13 April, 1994.

[14]Mika, Marie, Why and How Virtual Ethnography Can enhance Generative Design Research, Retrieved 10. 09. 2020, at 23.00, from https://medium.com

[15]Ibid.

[16] Ibid.

[17]Hine, Christine, Op.Cit

[18]Ibid.

[19]Ibid.

[20]Ibid.

[21]صوان، فرج محمد: "**البحث النوعي عبر الانترنت**"، متوفّر على https://academiworrld.org تاريخ التصفح 10 ديسمبر 2020، على الساعة 22.00.

[22]نفس المرجع

[23]Crespel Elodie, L´ethnographie multi sites en ligne: études des pratiques quotidiennes de partage de vidéos, COMM posite, no 19 (1), 2016, p 54.

[24]Ibid, p 55.

[25] Mika, Marie, Op.Cit

[26]Hine, Christine , Op.Cit

[27]Crespel. Elodie , Op.Cit, p 58.

[28]Crespel. Elodie, ibid, p 63.

مجلة مشكلات الحضارة